الفصل الثامن عشر

اللغة والوطن

من الأدلة علي تقدم أمة من الأمم تقدم لغتها وانتشارها، ومن الأدلة علي استمساك شعب من الشعوب بالوطنية وإخلاصه والحب لوطنه: حبه للغته وتمسكه بها إلى حد أنه لا يحب أن يكتب، أو يتكلم لغة سواها.

ونحن الشرقيين –ونخص العرب منا– إذا اتخذنا هذا الأمر قياسا علي أنفسنا حكمنا لأول وهلة ببعدنا عن الوطنية الحقة بعد الثريا عن الثرى؛ إذ ليس في لغات الدنيا أجمع من الكلام والتعابير ما يكفي لوصف إهمالنا لأمر لغتنا وتقصيرنا في خدمتها. بل ليس في لغات العالم كله من الألفاظ والمعاني ما يمكن الاكتفاء به للدلالة علي عظم الذنب الذي ارتكبناه نحو هذه اللغة العربية التي كدنا نؤدي بها، ونقضي بإهمالنا عليها.

وإذا شئت أيها القارئ العربي دليلا علي صدق هذا القول، فأرقب اجتماع، لا أقول من عامة الشعب وسوقته، بل من أذكياء شبانه وخاصته أولئك الذين يُتخذون رمزا عن الشعب ودليلا علي مقام الأمة من الحضارة والمدينة. وأصغ إذا وجدتهم مجتمعين يتكلمون، متنقلين من حديث إلى حديث. وأنا الضمين لك بأنك تحسب نفسك في البرج يوم تبلبلت الألسنة، وتفرقت اللغات. إذ أنك بينما تحسب الحديث عربيا تجده فرنساويا، ثم لا تلبث أن تراه متحولا وقد حلت كلمات الإيطإلة، أو الإنجليزية محل الفرنسية والعربية. بل أنك لا تكاد تسمع اثنين من أبناء الشرق أنفسهم حتى من الذين نزل القرآن

الشريف بلغتهم –اللهم الذين أخذوا منهم وقضوا السنين في المدارس– يتمّان حديثا لهما بلغة الآباء والأجداد، حتى أننا شهدنا مرة أربعة أصدقاء: أحدهم مسيحي سوري، والثلاثة الآخرون مسلمون مصريون، يأخذون علي أنفسهم العهود بألا تجري علي ألسنتهم كلمة عربية، وأكرم به من عهد!

وقد كنا نرجو أن تصلح حال هذه اللغة مع عود المدنية إلى الشرق، وانتشار المدارس فيه، وتنبه الأمم الشرقية إلى ما صارت إليه من الخمول والانحطاط بسبب إهمالها العلم، ونهوضها إلى الاستعاضة عما فات. فإذا التمدن الذي نأخذه هو الضربة القاضية، وإذا الدواء الذي نلتمسه هو الداء القاتل؛ لأننا لا نجد بين شبابنا المتعلمين إلا من يأنف من أن يرى ممسكا كتابا عربيا، ويخجل من أن يسمع متكلما بلغة وطنه.

ولسنا ننكر أن خطة التعليم في بلادنا هي العلة الكبرى في هذه المصيبة الدهماء، ولكننا لا نجد بدًا من الإقرار بأننا نساعد بأنفسنا علي نجاح هذه الخطة التي يقصد بها إلى قتل اللغة العربية في بلاد المشرق.

ولسنا نود الدخول هنا في موضوع الكلام علي المدارس وطرق التعليم في الشرق، فإن لذلك حديثا خاصا به سوف يأتي في مكانه من هذا الكتاب. ومع ذلك فإننا لا نجد مندوحة عن الجهر هنا بأن إهمالنا لأمر لغتنا العربية قد أصبح متجاوزا كل حد، حتى لأننا نرى الأجانب يتعرضون لاستبدال اللغة العربية الفصحى باللغة العامية، بل نراهم يسعون في استبدال أحرفنا العربية بأحرف إفرنجية، بحيث لا يبقي لهذه اللغة أثر ماثل للعيون والأبصار وهم ينفقون في السبيل ما عز وهان من النضار، ونحن ناظرون إليهم نظر المتفرج، كأن اللغة التي تُضرب علي أم رأسها لتُقتل شر قتله ليست لغتنا.

بل نحن لا نكتفي بالوقوف لدى هذا الأمر الفظيع في موقف الفرجة وعدم

الاكتراث، ولكنك تجد عندنا في قلب مصر –وهي ملجأ العربية، وحمى الكاتبين بهذه اللغة الشريفة– من يطبعون لأعداء اللغة كتبهم، ويوزعون نشراتهم، ويذكرونها في جرائدهم، ويجادلون أصحابها في صلاحيتها وأوجه النقص فيها.

وليس ذلك فقط، بل نحن نجد بين رجال الحكومة الذين يمثلون الهيئة الرسمية من يناقش المشيرين باستبدال اللغة الفصحى بلغة العامة، ويتبادل معهم الآراء في هذا الموضوع كأن الحديث فيه جائز مسموح.

فهل مثل هذه الأفعال مما يدل علي الوطنية؟ وهل ترجو أن تقوم لشعب قائمة وهو يساوم علي قتل لغته وطمس آثارها؟. لعمري إن الشعب الذي لا يحب لغته بحيث يفضلها علي أيه لغة سواها، لشعب تقل فيه المروءة، وتهون عنده الوطنية. والأمة التي تقل مروءتها ويهون عليها وطنها ليست خليقة بأن ترفع إلى مقام الأمم الحية والشعوب المتمدنة.

والغريب أننا نشهد في كل يوم مثلا جديدا، بل أمثلة عديدة علي حب الأجانب للغاتهم، ومحافظتهم عليها، ومباهاتهم بتمكنهم منها، فلا يزيدنا ذلك إلا تهاونا فوق تهاون بأمر لغتنا، بل لا يزيدنا ذلك إلا امتهانا فوق امتهان لها.

ونحن عاملون علي التشبه بالأجانب في كل أمر يأتونه، ومسلك يسلكونه. فلماذا لا نتشبه بهم ونحذو حذوهم في حبهم للغتهم ومحافظتهم علي تقاليدهم وعاداتهم؟. هل رأيت اثنين من الفرنسيين، أو الإنجليز، أو النمسويين، أو الإيطاليين يتكلمان فيما بينهما بلغة غير لغتهما؟. فلماذا نتهافت نحن في اجتماعاتنا علي التكلم بكل لغة غير لغتنا، ولماذا يأنف الواحد منا أن يري متصفحا كتابا عربيا، أو جريدة عربية ويخجل من أن يقال عنه أنه يميل إلى قراءة الشعر العربي والتلذذ بسماعه؟ في حين أن الشعر العربي من أجمل ما نطقت به شعراء العالم، وأفصح ما جرى على ألسنة البشر، بل هو السحر الحلال علي ما

قال فيه أحد واصفيه.

لعمري أننا إذا نظرنا إلى ما نحن فيه من بوار سوق الأدب في بلادنا، وإقفال النوادي العلمية، وانحطاط الجرائد والمجلات، وقلة التأليف، وخمول الذاكرة الشعرية، وندرة المكتبات، وقلة عدد الشبان الذين تقودهم العاطفة الوطنية إلى تعلم هذه اللغة علي أصولها. ورغبتهم في كل شيء إلا في خدمتها والاشتغال بها لا نجد لذلك سببا آخر سوى إهمالنا لأمر اللغة العربية، وعدم اكتراثنا بها، فكأنها إن عاشت، أو ماتت علي حد سواء.

ولو تدبرنا الأمر من أصح وجوهه لحكمنا غير هذا الحكم، وأدركنا أن الاحتفاظ باللغة والغيرة عليها بمثابة الاحتفاظ بالجامعة الوطنية نفسها؛ لأن اللغة من جملة الروابط الوطنية، بل هي أوثق عرى الوطنية، وأمتن دعائمها، وأمنع سياجًا لها.

ولو كان الشرقيون يدركون هذا الأمر لما وجدنا بينهم من لا يعرف لغته العربية وهو يتقن لغة، بل لغات أجنبية إلى حد أنه يجاري أهل الفصاحة فيها، ويسبقهم إذا سابقوه في مضمارها. وفي الحقيقة أننا لا نجد بين الناشئين من شبابنا من لا يقول الشعر الإفرنجي ويجيد فيه، في حين أننا لا نجد بينهم إلا ما ندر من يحسن قراءة سطرا أو سطرين من النثر العربي. وهي حالة قد أدت إلى بوار سوق اللغة إلى حد لا نلقى معه كاتبا عربيا إلا وهو يعتقد أن العلم مقرون بالإفلاس والشقاء، ولا نجد معه بين كبرائنا وأغنيائنا من يعرف شأن كاتب عربي، أو يعظم له قدرا.

وقد أذكرتنا هذه الحالة رسالة كتب بها إلينا أستاذنا الفاضل العلامة الشيخ إبراهيم اليازجي صاحب مجلة الضياء الغراء التي تصدر في القاهرة.

بعث بها إلينا من سوريا منذ نحو ثماني سنوات؛ ردا علي كتاب شكونا فيه إليه حالة الأدب العربي في هذا العهد، فرأينا أن نقتطف منها ما يجمل أن يكون رثاء لآدابنا العربية في هذا العصر، وعبرة للذين لا يحسبون لها حسابًا. قال: "أسألك أين الذي كنا نسمع عن نهضة الأدب عندكم، وغيرة الوطنيين في تلك الناحية وسخاء أيديهم علي أدبائهم؟ ألم يكن في فضلات أموالهم ما يقوم بمجلة صغيرة في حجمها، رخيصة في ثمنها، قليلة المزاحم في خطتها، تشغل فراغهم سلوة، وتملأ مجالسهم أدبا، وتسود صفحاتها بذكر مآثرهم والذود عن حياضهم،

وتقول أن في عزمك الرجوع إلى مجلتك. كلا ثم كلا، إنه الرأي القائل، وأنه لمن وساوس الباطل، وقد بلوت من أمره أولا وثانيا ما يغنيك عن إطالة النصيحة. وإن كنت فاعلا ولابد فأصدر منها جزءا واحدا تقوم فيه علي ضريح الشرق خطيبا مؤبنا، وشاعرا راثيا يستعير مراثي إرميا في مراثي قومه وأرضه حتى تبكي وتستبكي. إن وجدت في تلك الرمم المتحركة قلبا يشعر أو عينا تدمع. ثم انقش ما تكتبه علي لوح ذلك الضريح وشج رأس القلم وادفنه في تلك الرمم إلى أن يبعثه الله فيهم مرحوما مترضى عنه.

وإن توخيت بعد ذلك وجها من المعاش فاستعر لك ثوبا من الجهل تتردي به، وبرقعا من الخلاعة تستر حمرة وجهك أمام عيني نفسك، وتمسح ندي جبينك عن بشرتك الرقيقة، ثم اتبع القوم في سبيلهم، إنه اليوم هو السبيل"

ثم قال في موضع آخر من تلك الرسالة: "وإنني لا أراك إلا متحاملا علي نفسك بما لا تحتمله، جاهدا إياها في إدراك خطة ليس في وسع الأيام أن تماليك علي نيلها؛ لأنه ما دامت بضاعة الأدب كاسدة، وأهله معدومين فأنت أشبه بمن يطلب الثلج من الرمضاء، ولتمس العشب في ظهر الصفاه الصماء"

ونحن قد استشهدنا بما كتبه إلينا الأستاذ منذ نحو ثماني سنوات للدلالة

علي أن آفة إهمال اللغة ليست بالحديثة العهد عندنا، وأنها قد أصبحت علة مستحكمة وداء دفينا لا دواء لهما إلا المثابرة جهد المستطاع علي إحياء اللغة بعد موتها، وذلك بإقبالنا علي كل ما هو عربي من الكتب، والمجلات، والصحف، والمسارح، والنوادي، وبتعليم أبنائنا لغتنا، ولغة أجدادنا، وآبائنا، وبلادنا قبل كل لغة سواها. ونحن بخدمتنا هذه اللغة إنما نخدم أنفسنا وبلادنا بما يعود علينا خيره، ويؤول إلينا نفعه وبره، والله الموفق.